الرسوم الكاريكاتورية أيضا . . . -٢-

الأستاذ عصام العطار

نكتب هذا المقال بعد مقالنا الأول قبل أيام ، وقد عمّ الغـضب والـسخط والاحتجاج على تلك الرسوم الكاريكاتورية الآثمة مختلف أصقاع العالم الإسلامي ، وسائرَ المسلمين على درجات مختلفة ، وأشكال متعدّدة ، حيثما كانوا من الأرض

ووقعت خلال بعض التظاهرات والاحتجاجات هنا وهناك بعضُ تجاوزات مؤسفة خاطئة نستنكرها ، ونخشى من تداعياتها واستشرائها ، وتتابُع ردود الفعل العاطفي فيها ، بما يهدّد – إن اشتدّ واستمرّ – العلاقات الإنسانية ، والسلامَ الإنسانيّ بين البشر

و لم نستغرب هذه التجاوزات ، ولا نستغرب – إن لم نبادر جميعاً إلى معالجة الأمور – ما هو أوسع وأسوأ ممّا وقع

فأنتَ عندما تجرح مئاتِ الملايين ومئاتِ الملايين من البشر ، وتهينهم في أقدس مقدّساتهم ، لا تستطيع أن تضبط جميع تحركاتهم وتصرفاتهم وردود أفعالهم ..

مئات ملايين البشر تختلف بلدانهم وظروفهم ومـستوياتهم ، وتختلـف طبـاعهم وتقاليدهم وعاداتهم ، وتختلف أساليب تفكيرهم وتصرفاتهم .. دَعْكَ ممن يريد استغلالَ هذا الجوِّ العاطفيّ المشحون ، وتوظيفَه لأغراض ربما لم يكن لها علاقة بالرسول وبالرسوم

وإذا لم يمكن أن ينضبط في هذا الأمر الخطير ، وفي هذه الظروف الحرجة المنذرة ، ردودُ أفعالِ صحفٍ كبيرة محترمة في أوروبا ، وصحفيين ومثقفين وموجهين كبار للرأي العام ، فلا يلقوا بالزيت على النار بدل إطفاء النار ، ولا يُؤَجّجوا المشاعر بـدل تهدئـة المشاعر ، ولا يساهموا في دفع العالم إلى مزيد من النـزاع والصراع ، بدل المساعدة على الوئام والسلام والاحترام المتبادل والتعاون الصادق في إطار القواسم الإنسانية ، والمصالح الإنسانية المشتركة ، بين الأمم والشعوب ، والأديان والأعراق والحضارات ..

إذا لم يمكن ضبط ردود أفعال النخب المثقفة المفكرة المؤثّرة ، في أمر كهذا الأمر ، ينذر العالم كله – إذا اشتدّ واستمرّ – بكثير من العواقب الوخيمة والشرّ .. فكيف يمكن أن تنضبط ردود أفعال الجماهير الغفيرة المنفعلة الغاضبة التي تُعَمَّقُ جراحاتُها وتُسْتَثَارُ عقيدتُها وحفيظتُها وكرامتُها في كلّ يوم ؟!

ونسأل أنفسنا :

– لماذا هذا التضامن من بعض الصحف الغربية مع الصحيفة الدانماركية التي نشرت هذه الرسوم المنافية للحق والعدل والمصلحة والذوق السليم ، وألحقت بالعلاقات الإنسانية والسلام العالميّ – كما تبين ذلك – أفدحَ الأضرار ؟

ونسأل أنفسنا أيضاً ، ونحن في حيرة كبيرة ، ولا نريد أن ندخل في النوايا والمقاصد :

ما هي الضرورات أو المصالح أو المناسبة التي جعلت هذه الصحيفة الدانماركية تنشر هذه الصور القبيحة المؤذية ؟

ما هي الضرورات والمصالح والمبررات التي جعلت هذه الصحيفة تجرح مشاعر مليار ونصف من إخوة لها في الإنسانية كائنين ما كانوا .. دون ضرورة ولا مصلحة ولا سبب معقول ؟

ما هي الضرورات لاستفزاز أكثر من مليار ونصف من المسلمين ، وغرس الكراهية والبغضاء والتنافر والتدابر ، وتعريض العالم لهذه الفتنة المستطيرة ، ولهذه المخاطر والأضرار ؟

وهل يجوز لأحد كائناً من كان أن يُحرق العالم لعباً ولهواً وعبثاً ، دون حق ولا سبب ، باسم حرية الرأي ، ولا رأي هنالك ولا ما يحزنون ؟!!

ولو أن هذه الصحيفة بادرت – وقد انكشف لها بعضُ نتائج خطئها الفاضح المدمّر – إلى الاعتراف السريع الصريح بالخطأ ، والاعتذار الواضح الواجب عمَّا ألحقته بالمسلمين من جراحات وإهانات لانطفأت الفتنة في مهدها وانتهى الأمر

ولو أن الصحف الأوروبية المحترمة .. نبهت الجريدة الدانماركية إلى خطئها – بدل التضامن معها في الخطأ – ، وأنصفت الإسلام ورسول الإسلام بعض الإنـــصاف ، وفهمت مشاعر المسلمين بعض الفهم ، وأحسّت بهم بعض الإحساس .. لانطفـــأت الفتنة وانتهى الأمر

ولو أن الحكومة الدانماركية أخذت مسؤوليتها الأخلاقية والسياسية والقانونية نحو الحق والعدل والذوق والمصلحة الوطنية والإنسانية العليا .. لانطفأت الفتنة وانتهى الأمر

وليس بصحيح أبداً أن حرية الرأي في الغرب حرية مطلقة في كلّ الأحوال والأمور ، فليس لها أيُّ حدٍّ من الحدود ، ولا يستطيع أن يمسّها حُكْم ولا قضاء ولا قانون

فهنالك مُحَرّمات تقف دونها حريّةُ الرأي ، ويعُاقِب على انتهاكها أو مناقـــشتها – أحياناً – القضاء والقانون

أما بعد ،

فقد خَطَطْنا ما خططناه بصدق وإخلاص وصراحة

ونقلنا بصدق وإخلاص وصراحة ما يشعر به المسلمون ، وما يفكر به المسلمون ، وما يقوله المسلمون ..

وكتبنا ما كتبناه بصدق وإخلاص وصراحة ، لأننا نؤمن بضرورة وفائدة ووجوب الحوار الصادق المخلص الصريح :

على الصعيد الوطني والعالمي

على الصعيد الثقافي والحضاريّ

على الصعيد الاجتماعي والسياسيّ

وعلى كل صعيد

ونحن المسلمين الأوروبيين ، أو الأوروبيين المسلمين ، أو حملة الإقامات الدائمة أو الطويلة الأمد في أوروبا .. نشعر بمسؤولية عَيْنِيّة أو كِفَائِيّة خاصّـــة : أن نكـــون

دائماً جسوراً حيّة للتواصل والتعارف والتفاهم والتعاون بين أوطاننا الجديدة وأوطاننا القديمة ، وبين الثقافة الغربية والثقافة الإسلامية ، وبين المجتمعات الغربية والمجتمعات الإسلامية – إن قدرنا على ذلك – في كل مكان من الأرض

ونشعر في هذه الأيام الدقيقة التي لها ما بعدها في الخير والـشرّ ، بمـسؤوليتنا الكبيرة وواجبنا الكبير ، في الإسهام بكلّ ما نستطيع ، في حلّ هذه المشكلة القائمة المؤلمة ، وتجاوز هذه الأزمة المستفحلة المنذرة : أزمة الرسوم الكاريكاتورية ، ومـا تلاها ، وما نتج عنها لخير الغرب والشرق ، وخير الإسلام والمسلمين أجمعين

إننا نكرّر مناشدتنا للمسلمين حيثما كانوا من الأرض أن يضبطوا نفوسهم ، ويضبطوا صفوفهم ، ويحذروا التجاوزات التي تسيء إليهم ، وإلى قضيتهم ودينهم ، وتؤذي غيرهم من الأبرياء ، وأن يفتحوا أبواب الحوار والتفـاهم والتعـاون في مختلف المجالات النافعة والممكنة

وإيّاكم أيها المسلمون أن تقابلوا خطأً بخطأٍ أو إساءةً بإساءةٍ ، أو جراحاً بجراح .. وأن تطلبوا – قولاً وعملاً – غير الإنصاف والإصلاح ، وأن تسلكوا غير الطريق السلمي القانوني البصير ..

ونحن أخيراً نناشد الصحافة ، وأربابَ الفكر والقلم ، والرأيَ العامَّ في العـالمِ الغربيّ ، والعالمِ العربيّ والإسلاميّ ، أن ينظروا إلى هذه القضية ، وإلى سائر القضايا ، من أفق واسع يرى كل جوانب القضية ، وأن يفكروا بالعقل لا بالعاطفـة ، وأن يتوجهوا في تفكيرهم إلى المستقبل لا إلى الماضي ، مع الاستفادة من جميـع دروس الماضي ، وأن يجدوا الحلول الإيجابية الموضوعية العادلة ، لهذه المشكلة ولسائر المشكلات ، بما يحقق مصالحهم جميعاً ومصلحة العالم ، ويخدم الإنسانية والإنسان.

الخميس في ١٠ محرم ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦/٢/٩م